وحدهم، بل والسلطان العثمانى نفسه ، وهو ما جاء على لسان « مراد بك » أحد حاكمى مصر فى ذلك الوقت حينما جاءه خبر الحملة الفرنسية فقال : « أرجو أن توفقنى العناية الإلهية على سحق الفرنسيس والسلطان معا » ؛ فكانت هزيمتهم على أيدى الفرنسيين صاعقة .

ثم كانت مظاهر الحياة الفرنسية المعول الثانى الذى أيقظ الشعب إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة وتقليد الإفرنج فيما حققوه من تقدم فى العلوم ووسائل الحكم والحياة . وكان الطريق إلى ذلك هو البعثات إلى دول الغرب وهو ما عبر عنه بعد ذلك « الطهطاوى » فى تخليص الإبريز ، وعلى مبارك فى «علم الدين » ، والشدياق فى « الساق على الساق » ، وطه حسين فى الأيام وأديب ، والحكيم فى عصفور من الشرق وزهرة العمر ، وزكى مبارك فى مذكراته ، وأخيراً لويس عوض فى مذكرات طالب بعثة . كانت الرغبة فى الارتقاء بالمجتمع المصرى أو العربى أو الشرقى أو الإسلامى - سَمِّه ما شئت - هو الدافع لكتابة الصفحات عن أحوال الغرب وأسباب رقيه ورفاهية أبنائه، وضعف الشرق وأسباب تعاسة أبنائه .

ولنبدأ بحديث الجبرتى عمَّا فعله الفرنسيون لإصلاح الأحوال المعيشية فى مدينة القاهرة ، مما يستشف منه تَرَدّى أحوال المصريين